﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ [يونس: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـقـيـامـةُ حـقٌّ وعـذابُ الظّالمين ثابتٌ؛ لأنَّه حقٌّ المـظـلـومـين في رقابِ الظّالمين

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأول: لَمّا ذكر الله تعالى أنَّ العذاب حقٌّ في الآية السابقة، وأمر نبيَّه أن يُقسم على حقيقته ﴿وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾، وأنَّ المشركين لا يفلتون منه، إذ لا منجى لهم من الله، ولن يعجزوه هربًا، ولا شفاعةً من أحد ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ ذكر في هذه الآية بعضَ أحوال الظالمين في الآخرة، وامتناعَ افتداءِ كلِّ نفس من العذاب؛ لامتناع مُلْكِها لما تَفتدي به، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[1].

الثاني: لَمّا أخبر الله بحقيقة يوم القيامة وأنَّه واقع لا محال، حسُن التَّذكير بما كان من النّاسِ من الظلم في الدنيا، وذلك عند معاينة العذاب وطلبِهم بالسماح لهم ببذل جميع ما في الأرض ليفتدوا أنفسهم دون غيرهم، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾: الفاءُ والدالُ والحرف المعتلُّ كلِمَتانِ متباينتان جدًّا؛ فالأولى: أنْ يُجعلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى لهُ، والأُخرى: شيءٌ من الطعام[3]. والفِدى والفِداء: حفظُ الإنسان عن النّائِبَةِ بما يبذله

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5988.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدي).

عنه[1]، ويقال: فَداه وفاداهُ؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفَداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمالٍ أو غيره، فخلَّصه ممّا كان فيه، واسم ذلك المال: الفِديةُ، والفِدية والفِدى والفِداء كلُّه بمعنى واحد، وافتدى: قدَّم الفِدية عن نفسه، وتَفادى فلانٌ من كذا: إذا تَحاماه وانزوى عنه[2]، وتَفادى القومُ: فَدى بعضهم بعضًا، واستَتَرَ بعضُهم ببعضٍ مَخافةً[3]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب من الفِداء أو الفِدية: هو ما يُقدَّم لدفْع ضُرٍّ لَزِمَ، كالأسْر، والذَّبْح، وعُقوبةِ الذنب[4]،ومعنى ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾: لجعلتْ ما في الأرض من خزائنَ وأموالٍ ومنافعَ فديةً لها لتُنْقِذَ نفسها وتخلِّصها من عذاب الله.

2) ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾: النون والدال والميم: كلمةٌ تدلُّ على تَفَكُّنٍ[5] لشيء قد كان، يُقال: نَدِم على الشيء نَدَمًا ونَدامة: أسِفَ، فالنَّدم والنَّدامة بمعنًى واحد، والتَّنَدُّمُ: التَّحَسُّر[6]، ونَدِم على ما فعل: أَسِفَ وحَزن وَكَرِهَ الشيء بعد ما فعله، وتَنَدَّم على الأمر: تحسَّر عليه أو على فعله إيّاه[7]، فالنَّدم، غمٌّ يصحبُ الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقعْ، وحقيقةُ النادم أنْ يلومَ نفسه على تفريطٍ وقعَ منه، وأصل النَّدم: الإحساسُ بفقدِ مُعظَمِ شيءٍ أو كلِّهِ مع العجز عن استدراك ما فات[8].

ومعنى ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي.

3) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: القافُ والسينُ والطاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيين متضادَّين والبناء واحد، يُقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جار، فالقِسْطُ بالكسر: العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42]، والمُقْسِطُ: في أسماء الله تعالى: هو العادل[9]، والقُسوط: الميل عن الحقِّ، والإقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: الحصَّة والنّصيب، وتقَسَّطوا بينهم الشيء:

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدي).
(3) الخليل، العين: (فدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فدي).
(5) التَّفَكُّنُ هو التَّنَدُّمُ.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(7) الفيومي، المصباح المنير، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ندم).
(8) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قسط).

اقتسموه بالتسوية والعدل[1]، والقِسْطُ أيضًا: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[2]. ومعنى ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ في الآية: بالعدل، وبالحقِّ الذي يوزن فيه بميزانٍ دقيقٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مصيرُ الظّالمين في الآخـرةِ النَّدامةُ اللّازمةُ والعذابُ الشَّديد

يبيِّن الله تعالى أنَّ هول القيامةِ سيكون فوق ما تدركه عقول من كفروا بذلك اليوم، واستهزؤوا به، وأنَّه لو تحقَّق لكلِّ نفس ظلمت بالشرك والعناد، والاعتداء، والشهوات مُلكُ جميع ما في الأرض لبذلته يوم القيامة؛ لتفتديَ به من عذاب الله تعالى، ولن يكونَ لها ذلك، ولو قَدرتْ ما قُبِلَ منها[4]، ولشدَّة هذا العذاب الذي عاينه هؤلاء الكفارُ استسلموا، ولم يقدروا على الكلام؛ لأنَّهم بُهتوا؛ لِعِظَم ما دَهَمَهم، فلم يُطيقوا بكاءً ولا شِكايةً ولا شيئًا ممّا يفعله الجازع، وقضى الله فيهم بالعدل، وقضى بين الظالمين والمظلومين، والظالمين والأظلمين، فلا يُظلم في مملكتهِ أحدٌ وإن كان كافرًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾:

التحذير وبيان الأحـوال يعينان على الارتداع

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ؛ عطفتْ هذه الآية على قوله سبحانه: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، إذ إنَّ هذه الآية من بقيَّة القول؛ إعلامًا لهم بهولِ ذلك العذابِ عساهم أن يحذروه، ولذلك حُذِف المتعلَّقُ الثاني

(1) الخليل، العين، والزَّبيدي، تاج العروس: (قسط).
(2) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/120، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.

لفعل (افْتَدَتْ)؛ لأنَّه يقتضي مُفْدِيًا به، وَمُفْدِيًا منه، أي: لافتدت به من العذاب[1].

وتحتمل أن تكون الواوُ استئنافيةً على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ هو استئنافٌ في الحديث عن أحوال الظّالمين يوم القيامة، إثر الحديث عن إنكارهم له في الدُّنيا.

نكتةُ استعمال ﴿وَلَوْ﴾:

امتناعُ افتداء كلِّ نفسٍ من العذابِ؛ لامتناعِ ملكها لما تفتدي به

﴿وَلَوْ﴾ أداةُ شرطٍ تفيد التعليق في الماضي، وتختصُّ به، وتسميتُها بالشَّرط مجازٌ؛ لشبهها بالشرط من جهة أنَّ فيها ربطَ جملةٍ بجملة[2]، فقد ربطتْ جملة الشرط ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بجملة جواب الشرط ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: يدلُّ على امتناع الجواب لامتناع الشرط، والمعنى: امتنعَ افتداء كلِّ نفسٍ ظالمة لامتناع مُلْكِها لِما تفدي به ذاتها، وهو جميع ما في الأرض من أموالٍ ومنافع، ولامتناع قَبولِ ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفَرْض[3].

دلالةُ استعمال ﴿أَنَّ﴾:

الظّالمُ يستهينُ بأهوالِ الحسابِ فتأكيدُها خطابًا يُثبتُها حجَّةً

استعمل البيانُ القرآنيُّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾؛ لغرضين:

الأول: إفادة توكيد الجملة الاسميَّة (ما في الأرض كائن لكلِّ نفس) بما يحقِّق إيجازًا؛ إذ إنَّها تقومُ مقامَ تكرير الجملة.

الثاني: توضيحُ المعنى المُراد منها، وهو أنَّه لو امتلكت كلُّ نفسٍ أشركت ما في الأرض ملكًا ثابتًا ثبوتًا مؤكَّدًا لا شكَّ فيه؛ لافتدت به من عذاب اللّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 193.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/85.

معنى اللّام: ﴿لِكُلِّ﴾:

طلبُ الافتداءِ بملك الأرضِ جميعه برهانُ العذابِ الشَّديد

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: هي لامُ الملك، والمعنى: ولو أنَّ ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها - على كثرتها - هو ملكٌ للنَّفسِ الظالمة؛ لافتدت به، أي: جعلته فديةً لها من عذابِ الله يوم القيامة، وهذا إشارةٌ إلى شدَّة العذاب يوم القيامة، فالنَّفس لا تفتدي نفسها بما تحقِّقُ مُلْكها له إلا عند شدَّة العذاب وتحقُّقه.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرورِ: ﴿لِكُلِّ﴾:

تفاهةُ الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّها لا تُغني عن ساعةِ عذاب

قدِّمتِ الآيةُ المسندَ خبر ﴿أَنَّ﴾ وهو الجار والمجرور ﴿لِكُلِّ﴾ على المُسند إليه اسم ﴿أَنَّ﴾ وهو ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إذ ترتيب الكلام على مقتضى الظّاهر الصناعيِّ: (ولو أنَّ ما في الأرض لكلِّ نفس)؛ وسببُ تقديم الجارِّ والمجرور الاهتمامُ بالخبر، وبما فيه من العموم، بحيث ينصُّ على أنَّه لا تسْلَمُ نفسٌ أشركتْ من ذلك[1] السُّلوكِ لو تحقَّق لها يومَ القيامة، فإنَّ هولَ القيامةِ يجعل الظّالمين في رتبةٍ واحدةٍ من تمنّي الافتداء للخلاصِ، فليس لأحدٍ أن يخالف في رأيه؛ لما في الأمر من شديد العذاب، وكبير العقاب.

دلالةُ استعمالِ أداةِ العموم ﴿لِكُلِّ﴾:

عـذلُ الـلـه مـطـلـقٌ، فما يجري على نفسٍ واحـدةٍ يجري على جميعِها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ أداةَ العموم ﴿لِكُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقلْ: (ولو أنَّ لكم ما في الأرض؛ لافتديتم به) أو (لجميعهم ما في الأرض) لأمرين:

الأول: تهويلُ الأمر، وتفظيعُ الحال[2].

الآخر: الدَّلالة على العموم، أي: إنَّ "هذا العذاب لا تتحمَّله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/298.

أيَّة نفسٍ على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام"[1]، وعمومُ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ يشمل نفوس المخاطَبين مع غيرهم[2]، وهذا العموم يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، وإلى أنَّ الاستثناء في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبل من أيِّ نفسٍ ظالمة فديةٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّة لا تتغيَّر بطرائقِ تفكيرِها، ولا بأساليب البحث عن خلاصِها، كما أنَّ فيه إشارةً إلى خبرٍ غيبيٍّ، فإنَّ هذا العمومَ يلفُّ جميعَ الأنفسِ من غير استثناءٍ، فما يجري على آحادِها يجري على جميعِها.

سرُّ استعمالِ: ﴿نَفْسٍ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يأتِ بغيرها من الألفاظ المرادفة لها، فلم يقل مثلًا: (إنسان)، أو (امرؤ)، أو غيرها من الألفاظ، وذلك لأمرين اثنين:

لفظُ (نفسٍ) يشملُ الإنسَ والجنَّ ويُشيرُ إلى قوَّة الإرادة التي حرَّكتها في الدُّنيا

الأوَّل: أنَّ لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ أدلُّ على العموم؛ إذ يشمل كلَّ مكلفٍ من الإنس والجنِّ.

الآخر: أنَّ لفظَ نفسٍ يدلُّ على الذاتِ وقواها الداخلية من فعلٍ وإرادةٍ واختيار، وهو أنسبُ للسياق هنا؛ إذ الكلام عن يوم القيامة، وعذابِ النَّفس التي ظلمت بفعلها واختيارها وإرادتها، ومحاولتها الافتداء من عذاب الله بكلِّ ما تملك.

سرُّ التَّعبير بالتَّركيبِ الوصفيِّ ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾:

عبَّر القرآن بهذا التركيب الوصفيِّ في قوله تعالى: ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقل: (لكلِّ ظالم)؛ للإشارة إلى النفس التي ظلمت بأيِّ نوعٍ من أنواع الظلم سواء بالشِّرك، أم التعدِّي على الآخرين، أم غير ذلك من أصناف الظلم، ووقع منها هذا الظلم، ولو مرَّة واحدة

أقلُّ ما يصدق عليه لفظُ الظُّلمِ داخلٌ في الوعيدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

حسبما يفيدهُ كون الصفة فعلًا[1]، فإنَّ التَّعبيرَ بالتَّركيبِ الوصفيِّ يدلُّ على عمومِ الظُّلم الصّادر عنها، ولو قال: (لكلِّ ظالم)؛ لاحتمل ذلك أن يُرادَ به ظالمٌ ذو مواصفات كاملة في الظُّلم، والمرادُ هو الظُّلم المتحقِّق بقطع النَّظر عن كثرته وتكراره، ففيه تحذيرٌ من وخيم أمر الظُّلمِ بذكر سوء عاقبتِه.

نكتةُ إيثارِ صيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتْ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ وصفَ ﴿نَفْسٍ﴾ بصيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتْ﴾، ولم يأتِ بالوصف اسمًا، فلم يقل: (ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظالمة)؛ للدَّلالة على الآتي:

العادلُ المُقسِطُ سبحانهُ يعاقبُ على وقوعِ أدنى ظلمٍ مهما كان قليلًا

الأوَّل: الإيماءُ إلى تحقُّقِ فعل الظُّلم وانقضاءِ مدَّته، وأنَّه قد حانَ وقتُ المحاسبة عليه في اليوم الذي لا ظلم فيه.

الثّاني: أنَّه سبحانه العادل المقْسِط يعاقب على وقوع أدنى ظلم مهما كان قليلًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 8]، بخلاف ما لو أتى الوصفُ اسمًا؛ فإنَّه يُتوهَّم أنَّه لا يُحاسب على الظلم إلا من تحقَّق وصفه بالظالم، أي: من أصبح الظلمُ صفةً ملازمةً له.

الثّالث: للتناسب مع فعل ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾، فالفعلان بصيغة الفعل الماضي، وهذا أكثرُ تناسبًا من أن يُقال: (ولو أنَّ لكلِّ نفس ظالمة ما في الأرض؛ لافتدت).

نكتةُ إيثار: ﴿ظَلَمَتْ﴾:

الظلمُ سببُ الشِّركِ وفسادِ الحياةِ، وهو يشملُ الشِّركَ وغيرَه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمال لفظ ﴿ظَلَمَتْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ دون (أشركت) أو (كفرت) مع أنَّ الحديث عن المشركين؛ لثلاثة أمور:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

الأول: الدَّلالة على العموم، لتشمل كلَّ أنواعِ الظلم، وأوَّلها وأعظمها الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والمعنى: "ظلمت بالشركِ والعنادِ والاعتداءِ والشهوات، وغير ذلك من الظلم، وهو ظلماتٌ يومَ القيامة"(1)، ولو عبَّر بالشرك؛ لاقتصر الوصفُ عليه فقط.

الثاني: كون الظلمِ واختلالِ ميزانِ العدل سببًا لفسادِ الحياة، وتعطُّل حركتها، ونزول العقاب على الجميع، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]، فإن لم يردع الله ﷻ الظالمَ في الدُّنيا قبل الآخرة؛ لاستشرى الظلم، وإذا استشرى الظلم في مجتمعٍ؛ أخذَ كلُّ إنسان حقَّ غيره، وفسدَ المجتمعُ كلُّه(2)، "فإنَّ الله يقيمُ الدولةَ العادلة، وإنْ كانت كافرة، ولا يقيمُ الدولةَ الظالمة، وإنْ كانت مسلمة"(3).

الثالث: مناسبة هذا اللفظ لفاصلة الآية ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾، للإشارة إلى أنَّهم رغم ظلمهم، فإنَّهم لا يُظلمون؛ فحُكمُ الله فيهم هو العدل؛ وجزاءُ سيئةٍ بمثلها.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادة العموم، أي: كلُّ ما في الأرض؛ لأنَّ الظرفية هنا ظرفيةُ جمعٍ واحتواءٍ(4)، والمعنى: لو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ كلَّ شيءٍ في ظاهر الأرض وباطنها، وما في الدنيا كلِّها من خزائنها وأموالها، وجميع نفائسها ومنافعها على كثرتها(5)؛ لافتدتْ به من عذاب الله

تضاؤلُ الدُّنيا بجميعِ نعيمها إلى جانبِ عذابِ الله

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3591.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5989.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 28/146.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/352، والبقاعي، نظم الدرر: 9/140.

عند معاينتها له، وهذا بيانٌ لتضاؤل الدنيا بنعيمها وكلِّ ما فيها، إلى جانبِ عذاب الله تعالى[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

النَّظمُ القرآنيُّ يتناغمُ مع حقائق الوجودِ لا مع مُقتضياتِ العلومِ

دلَّ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على الظرفيَّة، وهي ظرفيَّةُ جمعٍ واحتواء[2]، والمعنى: كلُّ شيء تحتويه الأرض في ظاهرها وفي باطنها، ففيها إشارةٌ إلى ما في الأرض من معادنَ وطاقةٍ وخيراتٍ وكنوزٍ، وأنَّ الأمر ليس مقتصرًا على ظاهرِها، فدلَّ هذا الحرفُ على معنى العموم المتَّسق مع معنى عموم ألفاظ ﴿لِكُلِّ﴾ و﴿نَفْسٍ﴾ و﴿ظَلَمَتْ﴾ و﴿مَا﴾، وعدم تعبيرِ النَّظم بحرف الاستعلاءِ – وهو مقتضى الظّاهر للعلوم البشريَّة – دليلٌ على إعجاز القرآن، فإنَّ ما يقتضيه ظاهر النَّظر البشريِّ أنَّ الإنسان يفتدي بما يراه لا بما يختبئ في باطنِ الأرض، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّعبير القرآنيَّ يتناغم مع حقائق الوجود، لا مع ما تدركه عقولُ أرباب الحِجى والنُّهى.

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الأرضُ بما فيها، أو الدُّنيا بماضيها لا تحجبُ عن نفسٍ عذابًا آتيَها

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيد العموم؛ لتشمل جنس الأرض "أي: كلَّها من خزائنها ونفائسها"[3]، "ومن قليل أو كثير"[4]، "من معادنَ وزروعٍ وحدائقَ وجناتٍ ونعيمٍ ثابتٍ وعارضٍ تملكه وما في الأرض جميعًا"[5]، وقد فسَّر أبو السعود الأرضَ بالدنيا فقال: "ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت"[6]، وتكونُ اللّامُ في الأرضِ شبيهةً بتعريف الجنس، وعلى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/103.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

هذا التَّفسير يكون المقصودُ بالأرض الدُّنيا من خَلْقِها إلى بعثها، وهو تفسيرٌ قويٌّ يتَّسق مع الآيةِ في عمومِها، وهو أشدُّ تعبيرًا عن المرادِ من إياسِ الظّالمين من الافتداءِ.

سرُّ الاقتصارِ على ذكر الأرض دون السَّماء: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

مقامُ التَّرهيبِ يُرادُ منه ثنيُ الظّالمين لا إشغالُ الجاهلين

اقتصرَ البيانُ الإلهيُّ على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يذكر السماء؛ وذلك باعتبار ما عهدوه في الحياة الدنيا، فالذي يعرفونه هو ملكُ الإنسان لِما في الأرض من كنوزٍ وزروعٍ وجناتٍ ومعادنَ وغيرها ممّا تحتويه الأرض، ولم يسبقْ وأنْ ملكَ أحدٌ شيئًا من السماء (مِلْكَ تصرُّفٍ وبيعٍ وشراء) وإنْ كان سبحانه قد سخَّر للإنسان ما في السماء والأرض، ولكنَّه استخلفهُ على الأرض، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ولم يستخلفْه على السَّماء؛ ولهذا اقتصر على الأرض، كما أنَّ الأرض تُطلق ويُراد بها الحياة الدنيا، ولم تُطلق السماء على الحياة الدنيا.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: لماذا لم يذكرِ السَّماء على سبيل المبالغةِ؟ والجواب: أنَّ ذلك سيكون مدعاةً للسُّخريةِ، والمقامُ مقامُ تهويل العذابِ لترهيب الظالمين، لا لفتح أبواب المناكفةِ، فكان مقتضى الحكمةِ ذكرَ الأرضِ دون السَّماء.

دلالةُ مفردة الافتداء في: ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾:

الافتداءُ إنقاذُ النَّفس بمالٍ أو غيره لتخليصها ممّا هي فيه

دلَّتْ مفردة ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ على طلبِ الخلاص من عذاب الله من خلال صيغتها ومادَّتها؛ أمّا صيغتها؛ فقد جاء التَّعبيرُ في القرآنِ بفعل (افتدى) دون (فدى)؛ لأنَّ في (افتدى) زيادة تاء الافتعال لتدلَّ على زيادة المعنى، أي: لتكلَّفتْ فداءها به طلبًا للخلاص[1]، كما أنَّ معنى افتدى: قدَّم الفِدْية عن نفسه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدى).

وأمّا مادَّتها: الفِدى والفِداء؛ فهو حفظُ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه[1]، ويُقال: فَداه وفاداه؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمال، أو غيره فخلَّصه ممّا كان فيه، فالافتداء: إيقاع الشيء بدل غيره لرفع المكروه[2].

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

اجتمعَ في الواوِ معنى الاستئنافِ والعطفِ والحال

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ ثلاثة أوجه:

الأوَّل: عاطفة، وهي عطفُ ما أسرّوه من النَّدامة على تمنّي الافتداءِ، فهي عطفُ الندمِ على التَّمني؛ لأنَّ معنى الجملة السّابقة التَّمنّي، ولمّا كان مستحيلًا؛ كان من نتيجته النَّدم عند معاينةِ العذابِ.

الثاني: استئنافية، ومعنى الاستئناف قريبٌ من معنى العطفِ، وبيان ذلك: أنَّ الاستئنافَ يُرادُ منه ابتداءُ معنًى جزئيٍّ جديد، وهذا المعنى الجزئيُّ في حقيقته معطوفٌ على كلام سابق، ولذلك قال ابن عاشور: "جملةٌ مستأنفةٌ معطوفةٌ عطْفَ كلامٍ على كلام، وضمير أسرّوا عائدٌ إلى ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ باعتبار المعنى، وهو العموم مع تغليبِ المذكَّر على المؤنث"[3].

الثالث: حاليَّة، ذكره الآلوسيُّ بصيغة التَّضعيف، بتقدير قد[4].

وهذه الأوجه الثلاثةُ مقبولةٌ من حيث المعنى، فالاستئنافُ حاضرٌ باعتبارِه الجزئيِّ، والعطفُ حاضرٌ باعتبارِ المعنى، والحالُ حاضرٌ باعتبار مضمون المعنى، فحالُ أولئك النَّدامةُ يوم القيامة.

نكتةُ إيثار فعل: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

التَّهكُّم بالظّالمين فهم يتمنَّون إسرارَ النَّدامة لكن دون جدوى

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون (أخفوا)؛ لأنَّ الإسرار أوسعُ دلالةً من الإخفاء؛ إذ إنَّ الإسرار من الأضداد، فيأتي

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فدي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.

بمعنى أخفى، وهو المشهور، ويأتي بمعنى أظهر، ويحتمل هنا الوجهين: أمّا الإظهار؛ فإنَّه ليس بيوم تصبُّرٍ ولا تجلُّدٍ، ولا يَقْدِرُ فيه الكافر على كتمان ما نالَهُ، ولأَنَّ حالةَ رُؤيَةِ العذابِ يتحسَّرُ الإنسان على اقترافه ما أوجبه، ويُظْهِرُ النَّدامة على ما فاته من الفوز، ومن الخلاص من العذاب، وقد قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106]، قال الزمخشريُّ: "وقيل: أسرّوا النَّدامة: أظهروها، من قولهم: أسرَّ الشيءَ؛ إذا أظهره، وليس هناك تجلُّد"[1]، فيكون استعمالُ الإسرار من قبيل التَّهكُّم؛ إذ لا يستطيعون في ذلك الموقفِ إسرارَ النَّدامة، أي: إنَّهم لو استطاعوا ذلك لفعلوه، لكن ليس في ذلك اليوم شأنٌ للإسرارِ، ولا حضورٌ للإخفاءِ.

وأمّا الخفاء، فالمعنى: إخفاءُ النَّدامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه، ولا خطر ببالهم، ومُعاينتِهم ما أوهى قواهم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار النَّدم والحسرة في القلوب[2]، وفي هذا مزيدُ ألمٍ؛ لأنَّ "التعبير الحركيَّ لونٌ من التنفيس البدنيِّ، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألَّمُ أكثر"[3].

ومن بلاغة هذه المفردة أنَّها تجمع بين موقفين: موقف يحصل فيه الإخفاء والكتمان، وهو قبل الاحتراق بالنار، وموقف يحصلُ فيه الإظهار، وهو أنَّهم إذا أحرقتهم النّار؛ ألهتهم عن هذا التصنُّع لمن كان يتبعهم في الدنيا، فتركوا هذا الإخفاء، وأظهروا النَّدامة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106][4]، فهم في هذه الحال لا يكتمون ندمهم[5].

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال الماضي في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ و﴿قُضِيَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الماضي في الفعلين: ﴿أَسَرُّواْ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، و﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ مع أنَّ الإسرارَ لم يقعْ منهم بعدُ، فسيكون ذلك في الزَّمن المستقبل، وكذلك قضاء الله سبحانه بينهم لم يقعْ بعدُ، وذلك تنبيهًا على تحقيق

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/252.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 11/225، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/352.

وقوعه حتى كأنَّه قد مضى، إذ القيامة لمّا كانت واجبة الوقوع؛ جعل الله مستقبلها كالماضي[1]، والمعنى: وسيُسِرّون النَّدامة قطعًا، وسيُقضى بينهم قطعًا[2]، ففي الآيةِ استعارةٌ بتشبيه فعل المستقبل بالماضي على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة.

القيامةُ لمّا كانتْ واجبةَ الوقوع؛ أخبرَ عن مستقبلها كالإخبارِ عن الماضي

فائدةُ العدول إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

عدلَ البيانُ الإلهيُّ إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون أن يقول: (وأسرَّت) العائد على ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ مع تحقُّق العموم في صورة الإفراد أيضًا (وأسرَّت)؛ وذلك لإفادة تهويلِ الخطب بطريق الاجتماع لمّا رَأَوُا العذاب، ويكون الإسرارُ بطريق المعيَّة والاجتماع، ولم يراع ذلك فيما سبق؛ لتحقيق ما يتوخّى من فرض كون جميع ما في الأرض لكلِّ واحدة من النفوس[3].

اجتماعُ الظّالمين في الدُّنيا فرحًا، يستحيل في الآخرة ندمًا

والتعبيرُ بصيغة الجمع المذكَّر ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من بابِ حمل لفظ النَّفس على الشخص، أو لتغليبِ ذكور مدلوله على إناثه[4]. ودلالةٌ أخرى وهي أنَّ الإسرارَ سيكون لمجموعاتِ الظّالمين، ذلك أنَّ الظّالم لا يتمكَّن من ظلمِه في الدُّنيا ما لم يكن له معينون وخَدَمة، فجاء التَّعبيرُ بالجمعِ لبيانِ أنَّ اجتماعَ الظالمين في الآخرة على النَّدامةِ سيكون كاجتماعِهم في الدُّنيا على الظُّلم، وفي ذلك زيادةُ تهويلٍ من شأنِ النَّدامةِ، يتناغم مع عدل الله تعالى، فكما اجتمع الظّالمون في الدُّنيا فرحين بصنيعهم، سيجتمعون نادمين على صنيعهم في الآخرة.

بلاغةُ تعليقِ ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ بـ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾:

شدَّةُ النَّدامةِ عند معاينةِ العذابِ كتمتِ الأنفاسَ وأغلقتِ الأفواه

﴿لَمَّا﴾ بمعنى (حين) منصوب بـ ﴿أَسَرُّواْ﴾، أي: أسرّوا النَّدامة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/34.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

حين رأوا العذاب، أو حرفُ شرطٍ حُذِفَ جوابُه لدلالة ما تقدَّم عليه، وهو إسرارُ النَّدامة، أي: لمّا رأوا العذابَ أسرّوا النَّدامة[1].

وعلى كلا الأمرين فقد علَّقَ البيانُ القرآنيُّ إسرارَ الظالمين للنَّدامة برؤية العذاب؛ إشارةً إلى شدَّة هذا العذاب، وأنَّ في رؤيتهم ومعاينتهم له من فظاعةِ الحال، وشدَّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطقوا بشيء[2]، فأسرّوا النَّدامةَ، وحالُهم وعيونهم ونظرتهم يُظهرها من أوَّل البعث، فكيف عند رؤية العذاب، وعليه تكون الآيةُ قد أشارت إلى أنَّ إسرارَ النَّدامةِ عند رؤية العذابِ يماثل الكتمَ النَّفسيَّ واللفظيَّ عند الصَّدمةِ الأولى، فالأهوال من شأنها توريث النَّدامةِ، لكنَّ لحظة رؤية العذاب كان لها هولها الخاص، فاقتضى التَّعبير عنه بإسرار النَّدامة، فمن شدَّته كُتمت.

نكتةُ استعمال الرُّؤية: ﴿رَأَوُاْ﴾:

رؤيـةُ العـذابِ بالبصرِ عينُ اليقين

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ الرؤية ﴿رَأَوُاْ﴾ في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، ولم يقل: (لمّا أحسّوا العذاب)، أو (لمّا شاهدوا العذاب)، أو (لمّا عاينوا العذاب)؛ لأنَّ لفظَ الرؤيةِ أنسبُ للسياق، إذ السياقُ هنا سياقُ تحقُّقِ وقوع العذاب عليهم، واستحقاقهم له، فناسبَ استعمالَ لفظ الرؤية، وهي الرؤية البصريَّة التي تفيد اليقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 6 - 7].

معنى الواو في: ﴿وَقُضِيَ﴾:

الـــــواو بـين الاستـئـنـافـيَّة والعاطفة

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وجهين:

الأول: استئنافيَّة، والجملة هي "جملة أخبارٍ مستأنفة"[3]، وهو الظاهر[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130، "وهذا عند مَنْ يرى تقديمَ جواب الشرط جائزًا"، ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/73.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.

الآخر: عاطفة، والمعطوف عليه جملة ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فتكون داخلة في حيِّز لما، والمعنى: أسرّوا النَّدامة حين رأوا العذاب وحين قُضي بينهم بالقسط[1]، وجملة: (قضي بينهم) عطف على جملة: (أسرّوا)[2].

سرُّ إيثارِ المبني للمفعولِ:

آثر البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول: ﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ولم يأتِ بالمبني للفاعل؛ للتركيز على الحدث، وهو القضاءُ وحصرُ الوعي فيه، وللإيماء بأنَّه أوقِعَ على أيسر وجه وأسهله[3]، ولأنَّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملكُ القضاءَ إلا هو سبحانه الملك الأعظم الذي لا مُلْكَ إلّا مُلكُه، ولا حكمَ إلّا حكمه، أي: إنَّ هذا الفعل لا يصلح إلّا لله سبحانه، ولا يكون إلّا منه.

القضاءُ لله وحدهُ سبحانه الذي لا حكمَ إلّا حكمه

نكتةُ تقديم ﴿بَيۡنَهُم﴾:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ﴿بَيۡنَهُم﴾ على قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ للاهتمام به، وللاعتناء ببيان تعميم القضاء بينهم جميعًا؛ إذ السّياق يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، فكما أنَّ الاستثناءَ في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبلُ من أيِّ نفسٍ ظالمة فِدْية، كذلك قضاؤُه سبحانه بينهم شاملٌ للجميع، ولا يُستثنى منه أحد.

عدلُ الله مطلقٌ وقضاؤُه يشملُ الجميع

معنى البينيَّة في: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

الكفّار وإنِ اشتركوا في العذاب، فإنَّه لا بدَّ وأنْ يقضي الله تعالى بينهم؛ لأنَّه لا يمتنع أنْ يكون قد خانَ، وظلمَ بعضهم بعضًا في الدُّنيا، فيقتصُّ الله سبحانه للكافر المظلوم من الكافر الظالم؛ لأنَّ الظالم الكافر إنَّما ظلم مخلوقًا لله، فالحقُّ سبحانه ربُّ الجميع

منتهى العدلِ الإلهيِّ أنْ يقتصَّ للكافرِ المظلومِ من الكافرِ الظالم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.

وخالقُ الجميع، وكما أعطاهم بقانون الرُّبوبيَّة كلَّ خير مثلما أعطى المؤمنين، فلا بدَّ أنْ يقضي فيه الحقُّ سبحانه بالفصل والحكم بالعدل[1]، ولا سبيل إليه إلّا بأنْ يخفِّفَ من عذاب المظلومين، ويثقِّلَ في عذاب الظالمين[2].

معنى الباء في: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

قضاءُ الله سبحانه بين الخلائقِ مصحوبٌ بالعدل وموزونٌ بميزانِ القسط

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: المصاحبة والملابسة، أي: قُضي بينهم قضاءً مصحوبًا ومتلبِّسًا بالعدل.

الآخر: الآلة والاستعانة، أي: قُضي بينهم بواسطة القِسْط، وكأنَّ القِسْط آلةٌ للقضاء بينهم بالعدل، وهذا المعنى يشبه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47].

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

تذييلٌ دلَّ على منتهى العدالةِ الإلهيَّة يومَ القيامةِ حتى مع الظالمين

ختمَ البيانُ الإلهيُّ الآية بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وأتتْ هذه الجملة اسميَّة تفيدُ الثبات والدوام على عدم ظلمهم، فكانتْ بمنزلةِ وعد منه سبحانه بأنَّهم لا يُظلمون، وهذا التذييل أفاد معانيَ جليلة منها: التَّأكيد؛ حيث أكَّدت عدم ظلمهم، فقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أفاد أنَّهم لا يظلمون؛ لأنَّه إذا قُضي بينهم بالعدل لا يظلمون.

ومنها: الدَّلالة على العدالة الإلهيَّة المطلقة يوم القيامة حتى إنَّ الذي ظَلم في الدُّنيا، فإنَّه لا يُظلم يوم القيامة، فاختيار ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تناسبٌ مع قوله: ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، وفيه ملمحُ تعريضٍ بظلم الظالمين، ومزيد من النَّدامة والحسرة أمام عدلِ الله يوم القيامة.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّدم والحَسْرة:

النَّدمُ إحساسٌ بالغمِّ، فإذا اشتدَّ ألمُه؛ فهو الحَسْرةُ

يتقارب معنى النَّدم والحسرة، ويُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر في اللغة:

النَّدم: التَّحَسُّر من تغيُّر رأيٍ في أمرٍ فائت[1]، وتندَّمَ على الأمر: أسِفَ، وتحسَّر عليه، وكرهه بعدما فعله[2]، والنَّدامة: غمٌّ يصحب الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقع، وأصل النَّدم: الإحساس بفقد معظم شيءٍ، أو كلِّه مع العجز عن استدراك ما فات، فيلوم نفسه على تفريطٍ وقع منه[3].

ومعنى الحَسْرة: الحاء والسين والراء أصل واحدٌ، وهو من كشفِ الشيء، والحسرة: شدَّة التلهُّف والتأسُّف والحزن والغمِّ والنَّدم على الشَّيء الفائت، وكأنَّه انكشف أمره في جزعه وصبره حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه[4]، وحقيقة الحسرة أنْ يلحقه من النَّدم ما يصير به حسيرًا، والحَسير: الذي اشتدَّت ندامتُه على أمرٍ فاته، والحَسْرة: شعورٌ باطنيٌّ بالغُ الحدَّة بالنَّدم، مع عدم فرصة استدراك الأمر[5].

نلحظ أنَّ النَّدم والحسرة يشتركان في أنَّهما شعورٌ داخلي يصحبهُ غمٌّ على أمرٍ فائت، مع العجز عن استدراكه.

ويتميَّز لفظُ الحَسْرة بأنَّه أشدُّ النَّدم، ويكون شعور الحسير بالنَّدم بالغَ الحدَّة، وهو تألُّم القلب بانحساره عن مأموله، وكأنَّه لشدَّة ندمه وتلهُّفه على أمرٍ فائت انكشفَ حالهُ، وانحسر عنه قواه من فرط الغمِّ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرَّط منه[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 796.
(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ندم).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسر).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/65، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/407.

القِسْط والعَدْل:

العَدْلُ هو استواءُ الطَّرفين حكمًا، والقِسْطُ هو تحرّي العدل

بَيْن لفظي القِسْط والعَدْل تقاربٌ دلالي كبير؛ فكلاهما في أصل مادَّته يدلُّ على معنيين متضادَّين، وإذا نظرنا إلى المعنى الأول منهما؛ فكلاهما يعني: الإنصاف والمساواة، وخلاف الجَوْرِ، ولهذا لم يفرِّق علماء اللُّغة والمفسِّرون بين القِسْط والعَدْل، فجعلوهما كالمترادفين، إلا أنَّه عند إمعان النَّظر في المعنى اللغوي، والاستعمالِ القرآنيِّ لكلٍّ منهما تظهر بعض الفروق الدقيقة بينهما، ويتَّضح ذلك من خلال الآتي:

القِسْطُ في اللغة: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ، والقِسْط: العدل، والحصَّة والنصيب، وتقَسَّطوا الشيء بينهم: تقسَّموه على العَدْل والسَّواء، والإِقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[1].

والعَدْلُ في اللغة: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين: أحدهما يدلُّ على استواءٍ، والآخر يدلُّ على اعوجاج[2]، فالأول: ضدُّ الجَوْرِ، تقول: هو يعدل أي: يحكم بالحقِّ والعدل، والعَدْلُ من النّاس: المرضيُّ قولُه وحكْمُه، والتَّعادُلُ التَّساوي، والعَدْلُ: الاستواء والاستقامة، وتعديل الشيء: تقويمُهُ؛ وإذا مالَ شيءٌ؛ قُلْتَ: عَدَلتُه، أَي: أَقمتَه، فاعْتَدَل، أي: اسْتَقامَ، والعَدْلُ: الفداء[3].

وقد جمع القرآن بينهما في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(3) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحجرات: 9]، فيُفهم من الاستعمال القرآني أنَّ العدل هو الحكم بين النّاس بالعدل، وأمّا القسط؛ فهو تحرّي العدل.

وقد فرَّق بينهما العسكري، فقال: "القِسْط: هو العدلُ البيِّنُ الظاهر، ومنه سُمّي المكيالُ قِسْطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يصوِّر لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى، ولهذا قلنا: إنَّ القِسْط هو النصيب الذي بُيِّنت وجوهه"[1]. إذًا: القِسْط أخصُّ من العدل؛ لدلالة القِسْط على العدل في الحكم، وأمّا لفظ العدل؛ فأعمُّ من ذلك[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/225.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»